بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

منذ سنوات طويلة تعود الى عام ١٩٦٦ توطدت العلاقة بين قسطنطين وبينى ، ورغم صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٧٥ ، وهو الكتاب الذى يتناول بالتفصيل شخصية ذلك الامبراطور الرومانى العظيم ، لم تنقطع أبدا فى يوم ما صلاتى الفكرية بذلك الرجل ، باعتباره علامة بارزة من علامات التحول من العصور القديمة الى العصور الوسطى ·· ومن العالم الرومانى الى العالم البيزنطى ·

واذا كان الامبراطور الألمانى فردريك الثانى فى أوليات القرن الثالث عشر الميلادى ، قد حظى من المؤرخين بلقب « أعجوبة الدنيا » أو « محير العالم » Stupor Mundi فالذى لا شك فيه أن الامبراطور قسطنطين الأول ، يعد هو الآخر جديرا بحمل هذا اللقب ، بما اكتنف شخصيته من غموض ، وسياسته من دهاء ، وعقيدته من مراوغة ! فدفع بهذا كله المؤرخين الى حائط مسدود وقفوا قبالته يقلبون فى هذا التيه فكرهم بحثا عمن هو قسطنطين · ولم تكن حيرة معاصريه بأقل من ذلك · فالوثنيون اعتبروه حامى حمى امبراطوريتهم الرومانية وعقيدة الأرباب ، والمسيحيون الآريوسيون عدوه صديقهم الحميم ، والمسيحيون النيقيون رأوا فيه نصير أرثوذكسيتهم ! حتى اذا ارتحل عن الدنيا ، جاءت قلوبهم جميعا تبكيه ·· وعيونهم تذرف عليه الدمع حزنا !!

وقد حرصت فى هذه الطبعة الثانية للكتاب الذى بين أيدينا أن أضيف اليه خلاصة قراءاتى وأفكارى عبر هذه السنوات الطوال ، خاصة فيما يتعلق بمسيحية قسطنطين التى شغلت أفكار الباحثين عدد سنين · والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل ·

رأفت عبد الحميد

القاهرة ــ مدينة نصر

مارس ١٩٨٢

الفـــاتحة

تقتصر معظم الدراسـات التاريخية للدولة البيزنطية على الناحيتين السياسية والعسـكرية ، وقد يقترب بعضها على اسـتحياء من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية · أما العلاقة بين الدولة والكنيسة فى دراسة عميقة مستفيضة ، فليس لها عند الدارسين نصيب ·

واذا كانت العصور الوسطى قد حملت اسـم « عصر الايمان » ، فان بيزنطة بصفة خاصة تعتبر تجسيدا واقعيا لهذه الحقيقة ، لتداخل الخطين الدينى والدنيوى فى كل أمر من أمور الحياة ، وتغلغل المسائل العقيدية فى الشئون السياسية والاحوال الاقتصـادية والنواحى الاجتماعية ، وتأثيرها المباشر على الفنون والآداب والألعاب الرياضية ·

وقـد عبر عن ذلك المؤرخ نورمـان بينز Baynes فى كتـابه The Byzantine Empire بقوله : « ··· كانت الهـوايات والنزعات دينية ، وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوبا دينيا · لقـد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفية · فكانت عطلاته أعيادا دينية ، والعابه فى الملعب تستهل بتراتيل ، وعقوده التجارية توسـم بعلامة الصـليب ، أو تحتوى على ابتهالات للثالوث المقدس ، واذا أراد أن يستخير الله فى شىء لم يفعل ذلك الا عن طريق النساك أو الرؤى التى تمثل فيها القديسون الأموات · وكان يتخذ من التمائم تعاويذ له ، ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحـدرت من جسم قديس مات على عمود ، انجع دواء · وكانت حروبه مقدسة ، وامبراطوره خليفة لله فى أرضه ، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة ، فهى أما نذير يثنيه أو بشير يحفزه · لقـد ثار الجيش مـرة يطلب الى الامبراطـور قسـطنطين الرابع Constanitines IV (٦٦٨ ـ ٦٨٠) أن يشرك فى الحـكم معه أخويه هرقـل Heraclius وتيبريوس Tiberius ، ولما سـألهم الامبراطور لم يريدون ذلك ، أجابوه قائلين : « لأننا نؤمن بالثالوث ، فلنتوج أباطرة ثلاثة » !!

ولم تكن المسألة العقيدية تشغل فكر رجال الدين أو الساسة أو الطبقة المثقفة فحسب ، بل شارك فيها بالوعى حينا وباللاوعى أحايين ، الأباطرة ودوائر القصر ودور الحكومة والجيش وفرق المضمار ورجل الشارع ، لدينا على ذلك ما كتبه شاهد عيان فى النصف الثانى من القرن الرابع ، هو اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى أسقف نيسا Gregorius Nysaeus حيث يقول : « لقد امتلأ كل شىء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات والأسواق والأزقة • فاذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشىء ، فلسفوا لى الاجابة حول المولود والمخلوق ، واذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن الخبز ، أجابنى البائع بأن الآب أعظم من الابن ، واذا ما بحثت عما اذا كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الاجابة تقول ان الابن خلق من العدم » •

وهذا القول يوضح الى أى حد كان انسان تلك العصور مهتما بالعقيدة ، مشغولا بالمسائل الاسخاتولوجية • وقد لخص مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس ، سقراط Socrates هذا الأمر بقوله ان من الصعب على انسان أن يرسم خطا فاصلا بين أمور الدنيا وشئون الدين ، « فاذا ما اضطربت أمور الدولة ، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا » •

ومنذ بواكير القرن الرابع ، هلل شيخ مؤرخى الكنيسة يوساب Eusebius أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، لهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة ، وعده نبوءة الكتاب المقدس للمسيحية عقيدة وكنيسة •

وقد جاء هذا نتيجة طبيعية لتحول الدولة عن سياسة العداء التقليدى الذى مارسته ازاء المسيحية طوال القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، الى الاعتراف بها ديانة شرعية religio licita فى أوائل القرن الرابع ، ثم جعلت منها العقيدة الرسمية لها فى نهايته • وأدى هذا بالتالى الى ازدياد اهتمام الدولة بما يجرى بين جماعة المسيحيين وأنفسهم ، واضحت تقيم وزنا لكل ما يقع فى الكنيسة من خلافات لاهوتية أو تنظيمية ، قد تؤدى الى هرطقة أو انشقاق ، يؤثر بدوره على الامبراطورية بعد أن غدت المسيحية لها دين وحدة •

ويعد الامبراطور قسطنطين الأول Constantinus I (٣٠٦ ـ ٣٣٧)

مسئولا بصورة مباشرة عن كل هذه النتائج · فعلى الرغم من أنه لم يكن أول أباطرة الرومان الذين اتبعوا سياسة التسـامح مع المسيحيين ، الا أنه كان الوحيد من بينهم ، الذى تابع بشكل جدى تنفيذ سياسة المسـامحة ، وتخطى هـذه المرحلة الى مد يد العون للكنيسـة ، ثم الاغداق عليها حتى أغرقها فى فيض أنعمه · وكان طبيعيا أن تقبل الكنيسة عليه ، وأن تفتح له بالحب ذراعيها ، مسبحة بحمده ، مقدرة حسن الصنيع ، رافعة اياه مكانا عليا الى سمت الرسل والقديسين !

لكن قسطنطين وجد نفسه دون أن يدرى وقد غرق هو الآخر فى خضم هذه المعارك الجدلية حول المسألة الكريستولوجية ، وكان عليه بعد اذ جعل من نفسه « مبعوث الرب » وحامى الكنيسة ، وقد جاءته هـذه تعرض عليه خبىء صراعاتها من حول « الكلمة » أو من أجل النظام الكنسى ، أن يفصل بنفسه فى هذه المسائل الشـائكة · فدعا الى عقد المجامع الدينية ، المحلية والمسكونية ، وترأس جلساتها ، وأدار مناقشاتها ، وصدق على قراراتها ، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم ، بل وشارك فى صياغة العقيـدة على النحو الذى غدت به من بعد قاعدة الايمـان الأرثوذكسى · وبهـذا وضـع قسطنطين لخلفائه سنة ساروا عليها وتمسكوا بهـا ، ولا نجد امبراطورا واحدا منذ ذلك الزمان ، حتى ورث العثمانيون القسطنطينية ومن عليها فى منتصف القرن الخامس عشر ، يعلم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم ، الا وقد ساق قاربه فى هذا العباب · وهكذا ارتبطت أمور الدولة بشئون الكنيسة ، وهذه بتلك ، حتى أصبح لا يمكننا ، على حد تعبير سـقراط ، فهم أحدهما دون الآخر ·

من هنا كان من الصعب ، بل من المستحيل على اى باحث ، أن يسبر أغوار التاريخ البيزنطى فى حركته السياسية ، وتحركاته العسكرية ، ونشاطه الاقتصادى ، ومظاهره الاجتماعية ، وصوره الفنية ، وأشـكاله الأدبية ، وأنشطته الرياضية ، دون أن يمعن الفكر بعمق فى الجوانب الدينية والصراعات العقيدية والشئون الكنسية ·

ولمـا كانت المكتبة العربية تكاد تفتقر الى هذا النوع من الدراسـة التاريخية المتخصصة ، التى تعتمد فى جوهرها على المصادر الأصـلية ،

فقد بدأت رحلتى منذ فترة تقترب من عشر سنوات ، لتتبع تاريخ العـــلاقة بين الدولة والكنيســـة ، وكان بدهيا أن يحظى الامبراطور قسطنطين الذى وضع أسس تلك العلاقة ، وحدد معالمها ، بهذا الكتاب من هذه الدراسة ٠

ومما يجدر ذكره أن طبيعة العلاقة بين الدولة والكنيســة فى العالم البيزنطى ، تختلف عن مثيلتها فى الغرب الأوروبى ٠ فقد غدت الكنيســة الشرقية بفعل تدخل الأباطرة فى أدق شئونها ، دائرة من دوائر الحكومة ، وتمثل هذا بصورة واضحة فى القسطنطينية ، حيث أمسى أساقفها موظفا كبيرا فى البلاط الامبراطورى ، ولم نشهد مجابهة عنيفة ، الا فيما ندر ، بين بطريرك العاصمة والامبراطور طيلة أحد عشر قرنا من الزمان هى عمر الامبراطورية البيزنطية ، وان كان قد تكفل بذلك الكراسى الأسقفية الأخرى فى الولايات خاصة أسقفيتى الاسكندرية وأنطاكية اللتين ناوأتا بصـــورة مستمرة ، بل وتحديتا أحيانا كثيرة نفوذ كنيســـة القسطنطينية ومن ورائه سلطان الأباطرة ٠

أما فى الغرب فقد كان الحال على غير ذلك تماما ، فقد تزعمت كنيسة روما عالم المسيحية هناك ، وأضحى البابا يمثل الزعامة الروحية على كل الكنائس ، خاصـــة بعد أن فقدت ميلانو أشهر أساقفتها فى القرن الرابع ، القديس أمبروز Ambrosius وساعد على ذلك تيـار الأحـداث ، منذ هجر الأباطرة روما واتجهوا الى نيقوميـديا Nicomedia ثم القسطنطينية فابتعدت روما بذلك عن التأثير المباشر للامبراطور ٠ بل ان أباطرة النصف الغربى حتى سنة ٤٧٦ كانوا يتخذون من رافنا Ravenna و ميلانو Milano (Mediolanum) مستقرا ومقاما ٠ وبهذا وجد البابا نفسه سيد روما بلا منازع ، وسرعان ما ضم الى سلطاته الروحية سلطة زمنية عندما خرج يفاوض زعماء الجرمان الذين أحدقوا بروما فى القرن الخامس ٠

نتيجة لذلك ، وبسبب انشغال أباطرة بيزنطـة فى الخلافات العقيدية التى سعر لهيب جدالها فى النصف الشرقى من الامبراطورية ، وتصـــديهم المســـتمر لجماعات الجرمان على الدانوب وفى البلقان ، والفرس على الفرات ، ثم المسلمين من بعد فى سوريا وآســـيا الصغرى ومصر وشمال أفريقيا والبحر المتوسط ، ومن جراء التباعد المذهبى العقيدى بين كنيستى

روما والقسطنطينية ، امتدادا للتباين الفكرى بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى ، ازداد نفوذ البابوية وسلطانها · ودعم من هذا النفوذ تلك الشخصيات القوية التى اعتلت عرشها ، ليو الأول Leo I (٤٤٠ ـ ٤٦١) وجلازيوس الأول Gelasius I (٤٩٢ ـ ٤٩٦) وجريجورى الأول Gregorius (٥٩٠ ـ ٦٠٤) وليو التاسع Leo IX (١٠٤٩ ـ ١٠٥٤) وجريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥) وانوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ ـ ١٢١٦) · يضاف الى ذلك أن حركة الاصلاح الديرانية الكلونية قد ساهمت بنصيب وافر فى اعلاء شأن البابوية · وظهرت النظريات وزيفت الوثائق من أجل تدعيم سلطان البابوية كالنظرية البطرسية ، والآراء الجلازية ،ونظرية السيفين ، وهبة قسطنطين ، والمراسيم البابوية التى أصدرها جريجورى السابع ·

ولهذا فقد شهد تاريخ العصور الوسطى الغربية بعد قيام امبراطورية شارل العظيم Carolus Magnus (Charlemagne) (٢٥ ديسمبر ٧٩٩) ثم احياء الامبراطورية زمن أوتو الأول Otto I (سنة ٩٦٢) صراعا عنيفا ودراميا بين البابوية والامبراطورية ، بلغ أوجه فى اذلال كانوسا Canossa عام ١٠٧٦ ، على عهد الامبراطور هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع ، ثم فى عهد الامبراطور فردريك بربروسا Frederick I Barbarossa (١١٥٢) ١١٩٠) وذلك فى محاولة لاعلاء شأو احدى السلطتين على الأخرى ، الزمنية أو الروحية · وكان هذا الصراع هو السمة الرئيسية التى صبغت العصور الوسطى الرئيسية ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ·

وقد اعتمدت فى هذا الكتاب على كل ما توفر لدى من المصادر الأصلية، كتابات أثناسيوس Athanasius أسقف الاسكندرية (٣٢٨ ـ ٣٧٣) والتى تبلغ أربعين عملا ما بين كتاب وخطبة ومقال ورسالة ، ومؤلفات التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica ليوسباب القيسارى وسقراط وسوزومين Sozomenos وثيودوريت Theodoretus وكتابات لاكتانتيوس Lactantius والقديسين أوغسطين Augustinus وجيروم Hieronymus

ورغم المادة العلمية الوفيرة التى تقدمها هذه المصادر ، الا أن بعضها

تغلب عليه بشكل واضح روح العصر من الاهتمام بذكر المعجزات والخرافات وخاصة التاريخ الكنسى لسوزومين · أما الصفة التى تجمع بينها ، فهى أنها تعبر عن وجهة نظر الكنيسة الجامعـــة ، ومن ثم تصب لعناتها على الفرق الخارجة عن دائرة الكنيسة ، ولهذا كان علينـا أن نأخـــذ رواياتها وآراءها بحذر وأن نعالجها بروية · ولعلى أكون قد وفقت فى هذا سبيل ، وقدمت بهذا الجهد للمكتبة التاريخية والدراسات البيزنطية عملا أشعر أنها فى أشد الحاجة اليه ·

والآن ·· على أن أســـعى الى محراب العرفان ، لأقدم كل التقدير والثناء للاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية باعتباره صاحب الفضل الأول فى اخراج هذا الكتاب الى دائرة الضوء ، والأستاذ الدكتور مراد وهبة أستاذ الفلسفة بجامعـة عين شمس والدكتور على الغمراوى والدكتور اسحق عبيد الأســـتاذين بآداب عين شمس ، والأب الدكتـــور جـورج قنـــواتى رئيس ديـر الآباء الدومينيكان بالقاهرة ، ونيافة الأنبا غريغوريوس أســـقف البحث العلمى بالكنيسة المرقسية ، لما بذلوه جميعا من جهد ربما فاق جهدى ، ودقة بالغة صقلت فكرى ، فقد أفسح الجميع لى صدورهم نقاشا ، وقدموا لى يدا مليئة بالعون كل العون · وشكرى العميق لأمناء مكتبات الدير ومعهد الدراسات القبطية والكلية الاكليريكية وجامعات عين شمس والقاهرة والاســكندرية ·

ومع يقينى أن كلمات تتلى فى محراب الشـكر والعرفان غير كافية ، الا أن قلمى لا يملك سواها ، وان كان قلبى يحمل لهم بين ثناياه الكثير ·

ذلك مبلغى من العلم ، فان أصبت فمن الله ، وأن أخطأت فمن نفسى ·

رأفت عبد الحميد

مدينة نصر فى أول أكتوبر ١٩٧٤